

سير ذاتية نسائية مُلهمة يجب عليك قراءتها



أدب السيرة الذاتية أو Autobiography، هو فرع من فروع الأدب التوثيقي، حيث تُكتب السيرة الشخصية بضمير المتكلم أو ضمير الغائب، يرويها صاحبها بنفسه مثلما فعل "طه حسين" في "الأيام"، أو يلعب فيها الخيال دورًا كما في "اعترافات" جان جاك روسو، وقد تدور عن التجربة الروحية والتحليل النفسي مثل "اعترافات القديس أوجسطين"، وقد تكون صادمة مثل "الخبز الحافي" لمحمد شكري.

وأدب السيرة الذاتية، رحلة أدبية خالصة، حيث يأخذك الكاتب في جولة تلصص على عالمه الخاص وتجربته الشخصية، وتكون في أحيان كثيرة نوعًا من أنواع التطهر أو سردًا لما مرّ به وأوصله إلى ما هو فيه.

تاريخ السير الذاتية الأدبية

كان الأديب الفرنسي جان جاك روسو أول من أرسى قواعد هذا الفن الأدبي عام 1700م، حين صدرت سيرته الذاتية "الاعترافات"، ثم تبعه بعد ذلك العديد من الأدباء والشعراء في أوروبا.

ثم انتقل هذا النوع من الفن الأدبي إلى أدبنا العربي عام 1855م، مُتمثلًا في "الساق على الساق" فيما هو الفرياق" للشيخ أحمد فارس الشدياق، والذي صدر في باريس، حاملًا الكثير من سيرة "الشدياق" الذاتية وملاحظاته اللغوية.

ثم كتب الأديب عبد الرحمن شكري "الاعترافات" عام 1916م، وطبعه في الإسكندرية، ثم صدرت "الأيام" أشهر سيرة ذاتية في الأدب المعاصر في جزئها الأول عام 1926م، للأديب العالمي طه حسين، ثم تبعها الجزء الثاني عام 1939م.

وكان ذبوع أدب السيرة الذاتية وإقبال القراء على شراء وقراءة مثل هذا النوع من الكتب، سببًا من الأسباب التي دفعت العديد من غير الأدباء إلى تدوين تجاربهم وحياتهم الشخصية، ونقل ما مروا به للآخرين، كالساسة والوزراء والمشاهير والفنانين، الذين قاموا بكتابة مذكراتهم ونشرها، ومنهم على

سبيل المثال لا الحصر نجيب الريحاني، شارلي شابلن، مارلون براندو، فيديريكو فيليني، محمد نجيب، أنور السادات، أدولف هتلر، هيلين كيلر، ماري كوري.

لكننا في هذا التقرير سننحاز عزيزي القارئ إلى الأقلام النسائية، حيث سنأخذك في جولة سريعة للتعرف على بعض أشهر وأفضل السير الذاتية الأدبية النسائية التي يجب عليك قراءتها.

أثقل من رضوى - مقاطع من سيرة ذاتية

الحكايات التي تنتهي لا تنتهي، ما دامت قابلة لأن تروى

بعد أن كتبت "الرحلة: أيام طالبة مصرية في أمريكا، نص سيرة" والذي صدر عن دار الآداب، عام 1983م، وسجلت فيه ما مرت به، إبان دراستها لنيل درجة الدكتوراة من الولايات المتحدة، عادت الأدبية المصرية العظيمة وأستاذة الأدب الإنجليزي بجامعة عين شمس الدكتورة رضوى عاشور، لكتابة فصول أخرى من سيرتها في كتابها قبل الأخير "أثقل من رضوى - مقاطع من سيرة ذاتية" والذي صدر عن دار الشروق عام 2013م.

لتروي لنا في سرد شيق سلس، استخدمت فيه ضمير المتكلم، مزيج من مشاهد ثورة يناير وميدان التحرير والشهداء، وتجربتها في مواجهة مرض الشوانوما غامض النوايا طول الثلاث سنوات الأخيرة، ورحلتها العلمية والمهنية مع الجامعة، وعلاقتها الأسرية، وما يحمله الواقع من تقاطع عجيب بين حدي الحياة والموت، لتشارك القارئ فيما عاشته وعاشته من أمل وألم، وما لاقته من نجاحات وعثرات، مؤكدة أن "الحياة، برغم كل شيء، تتجدد وتستمر وتتجاوز، وأن الموت تؤطره الحياة، فهي تسبقه وتليه، وتفرض حدوده، تحيطه من الأعلى والأسفل".

رحلة جبلية.. رحلة صعبة

إن المشاعر المؤلمة التي تكابدها في طفولتنا، نظل نحس بمذاقها الحاد مهما بلغ بنا العمر واحد من أهم ما كتب في أدب السير الذاتية العربية على الإطلاق، وترجم للغات عدة، منها الإنجليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية، وعلى الرغم من أنه نُشر لأول مرة عام 1985، لم يفقد بريقه أبدًا وحظى باهتمام العديد من الباحثين في فلسطين والعالم العربي، فـ "فدوى طوقان" أو "أم الشعر الفلسطيني" كما أسماها محمود درويش، سكت في هذه السيرة الذاتية كل الأسى الذي عانت فيه طفولتها ومراهقتها وشبابها، بل وعانت منه قبل ميلادها حين حاولت أمها أن تتخلص منها - دوتًا عن باقي إخوتها التسعة - بإجهاض الحمل.

ليُصبح هذا الألم رفيقها إلى ما لا نهاية، وتسكبه "فدوى" بلغة شاعرية رائقة في سيرتها الأدبية المدهشة، لتحكي لنا عن معاناة الأنثى العربية في مجتمع محافظ صارم، ومن ثم محتل، والمصائب التي مُنيت بها تبعًا، والتي أثرت في شخصيتها أيما تأثير، وخلقت لها عزيمة وإدارة لا تلين، مكنتها من شق طريقها الوعر في الجبال الصخرية، لتُصبح الشاعرة العظيمة "فدوى طوقان".

حصيلة الأيام

كل حياة يمكن أن تروى كرواية، وكل شخص مئًا هو بطل أسطوره الخاصة

بعد أن ضفرت في الجزء الأول من سيرتها الذاتية "باولا"، مقاطعًا من سيرتها الذاتية وسيرة ابنتها الغالية الراحلة، إبان مرضها الغريب الذي أدخلها في غيبوبة لفترة من الوقت، كتبت الرواية التشيلية "إيزابيل الليندي" بعد ثلاثة عشر عامًا الجزء الثاني من سيرتها الذاتية تحت عنوان "حصيلة الأيام".

حيث جاءت هذه السيرة، كطقس من طقوس العلاج النفسي، في محاولة للتغلب على ألم الفقد الذي كان كفيلاً بقصم الظهور، وتحطيم ما تبقى من الروح بعد وفاة باولا، لتحكي لنا إيزابيل كيف تحصنت

وباقى أفراد العائلة أو "القبيلة" كما نحب أن نطلق عليهم، ببعضهم البعض، أملاً في النجاة من عاصفة الحزن القاتل التي ضربتهم، وكيف استطاعت من خلال قوتها الفريدة، أن تجمع شتات روحها المكلمة بوفاة ابنتها الشابة.

حيث تبدأ أحداث هذه السيرة في الأسبوع الثاني من شهر يناير/كانون الثاني عام 1992م، بعدما انتهت هي وباقي أفراد القبيلة والأصدقاء المقربين من نثر رماد "باولا" وفقاً لوصيتها المكتوبة قبل أمد طويل من سقوطها في الغيبوبة، التي لم تفق منها، لتظل إيزابيل طول الكتاب، توجه كلامها إلى باولا، وكأن الكتاب رسالة مطولة أو عدة رسائل للحبوبة الراحلة، يُخبرها فيه عن كل ما جرى بعد رحيلها المفجع، كي لا يفوتها شيئاً من أخبار القبيلة التي أحببتها، ولكي تبقى الكاتبة على تواصل مع روح ابنتها.

حملة تفتيش - أوراق شخصية

علق الأديب اللبناني "إلياس خوري" على هذه السيرة الذاتية، قائلاً: "إننا أمام تجربة مثيرة ومدهشة، باعتبار لطيفة الزيات أول كاتبة عربية تُعزّي حياتها أمامنا.

في هذا الكتاب، تكسر لطيفة الزيات حدود السيرة الذاتية، وتكتب عن تجربتها المؤلمة في السجن، ومن ثم تنقل أثر السجن عليها وعلى صديقاتها اللواتي انضمن لها، وعلاقتها بسجانها وكيف استطاعت أن يُبدّل المواقع وتجعل من السجن مسجون، وتظل هي طليقة الروح، ثم تذهب و تتطرق إلى تجربة أخرى لا تقل إيلاً عن تجربة السجن، زواجها وطلاقها، وما تركته هذه التجربة من ندوب وجروح، أكثر غوراً من ندوب السجن، بالإضافة إلى موت أخيها عبد الفتاح وربطها لهذا الحدث الخاص بآخر عام.

كانت لطيفة الزيات قد افتتحت سيرتها الذاتية، ببداية كئيبة، وكأنها تُنبه القارئ إلى ما سوف يلاقه بين صفحات سيرتها الذاتية، حيث قالت: "في الغرفة المجاورة يحتضر أخي عبد الفتاح، لا يعرف أنه يحتضر ولا أحد سواي في البيت يعرف، منحه الطبيب فسحة من العمر من ثلاثة إلى ستة أشهر، ما بين فترات التمريض وصناعة البسمات والدعابات وتزوير الروشتات، حتى لا يعرف أخي بطبيعة مرضه وبحقيقة أنه يحتضر، أجلس لأكتب، أدفع الموت عني، فيما يبدو سيرة ذاتية، لا يكتب لها الاكتمال".

حيث سعت الكاتبة إلى عكس الأحداث العامة على تاريخها الشخصي، كما سبق وفعلت في روايتها الشهيرة "الباب المفتوح"، لتأتي سيرتها الذاتية مختلفة تماماً عن تجارب غيرها في الكتابة عن الذات.